أحزان الأسود وأفراح القرود

يوم فضيحة «آدم» و«حواء»

للدكتور زكي مبارك

سارت الأمور إلى ما شاء القدَر أن تسير إليه ، وذاق آدم لأول مرة لذعة الندم الأليم ، فقد كان يملك زجر حواء عن قرب شجرة التين ، لو قُدِّر له أن يتماسك فلم يخضع لسلطان حُسنها الوهَّاج ...

وانزعجت حواء لما أصاب الجنة من زلزال ، فعرفت من أخطار الخطيئة ما لم تكن تعرف ، وأدركت أن المزاح في تفسير الحرام والحلال عَبَثُ أطفال

— آدم ، لا تبتئس ، فقد عجّل الله بالعقوبة ، ولم يبق إلا أن نأنس بالاطمئنان

— وما هي العقوبة التي عجّل بها الله يا حواء ؟

— هي ما أصاب الجنة من زلزال ، فقد هدأت العواصف والقواصف ، وعاد كل شيء إلى قراره المألوف

— الزلزال الخطر هو البلبلة التي تثور في صدري ، وما أحسبني سأستريح ، وهل أنت مطمئنة يا حواء ؟

— لا ، وإنما أردت أن أهوّن عليك وقع ما نحن فيه ، فما زال قلبي يرتعد من هول الصدمة ، وليتني متّ قبل الخطيئة وكنت نسياً منسيًّا !

— أرأيت يا حواء عواقب الإصاخة لأقوال المفسدين ؟ ألم أنهكِ عن صحبة الحية ؟ ألم أخوّفك من الاستماع إلى إبليس ؟

— ليتني أطعتك ! ليتني أطعتك !

— وهل تنفع شيئاً ليت ؟

— في ليت تعزيةٌ للخائبين ، فلنتعزّ بها إلى حين !

وفي أثناء هذا الحوار كان آدم يلاحظ أن أسراباً من الطير والحيوان تنظر إليه وإلى حواء باستغراب ثم تنصرف ، فما الذي جدّ عليه وعلى حواء بعد الزلزال حتى يقع ذلك الاستغراب ؟

وحانت من آدم التفاتة فرأى سوأة حواء بادية ، وأطرق فرأى سوأته قد انكشفت والمياذ بالقبوق ، وكذلك أدرك أن أسراب الطير والحيوان قد هالها أن يمسي آدم وحواء وهما في حال تسر العدو وتحزن الصديق

كانت الفاجعة أعنف مما يتصوره الخيال ، فقد فُطر آدم على الحياء ، ألم يكن أول مخلوق ستر ذلك الشيء ؟ أما الكلام عن حياء حواء ، فهو حديثٌ مُعاد ، فما إستطاع أحد من سكان الفردوس أن يتوهم صورة المنطقة المحرمة من جسمها الجميل

— أتصنع المعصية كل هذا يا آدم ؟

— وأشنع من هذا ، فقد يعاقَب العصاة بالقتل

— الفضيحة أبشع من القتل

— أنا لا أراها كذلك ، فالقتل أخطر وأعنف

— الرجل يُقتل بالسيف ، والمرأة تُقتل بالفضيحة ، فأنا وحدي المقتولة بعقوبة اليوم

— وما المخرَج يا حواء ؟

— نخصِف على هاتين السوأتين من ورق الجنة ، إلى أن يقضي الله في أمرنا بما يشاء

* * *

لا موجب للاطالة في تصوير جزع آدم وفزع حواء مما صارا إليه ، فالوصف لا يحيط بصورة الحزن الذي يساور النفس النقية حين تسقط أول مرة ، فهي تتخيل أن شبح الفضيحة يلاحقها في كل طريق ، وأن الموجودات كلها عيون تنظر إليها باحتقار وازدراء ، ولا كذلك النفس الخبيثة ، فهي لا تتأثر بالفضيحة إلا بمقدار ما يتأثر الصخر الأصم بهبوب الريح

كان آدم على فطرته الأولى يوم اقترف ما اقترف ، وكان وحيداً في بلواه ، فلم يجد من أصدقاء السوء من يهوّن عليه مصيبة العصيان

وحواء ؟ وحواء ؟

كانت زهرة نضيرة لم تسمع بأن في الوجود لوافح تَرِزا الأزهار بالذبول

وهل كانت حواء تجدّ وهي تدعو رفيقها إلى قرب الثمر الممنوع ؟

إن شيئاً حدثنا أن تمردها على الأوامر الربانية لم يكن إلا فنًّا من فنون الدلال . ولعل هذا هو السبب في أن الجنة لم تُصب بأذًى بعد أكلها من شجرة التين ، وإنما وقع ما وقع حين هفا آدم ، لأنه رُزق من العقل ما يكفي للتمييز بين المحرَّم والمباح

وزاد في هم حواء عرفانُها بخطورة الزلق بعد الذي كان ، فصارت تصرخ من وقت إلى وقت صراخاً يصل إلى مسامع سكان الفردوس بأعنف مما يصل صوت المظلوم إلى آذان القضاة العادلين . . . وكذلك لطف الله بحواء ، فأمر ورق الجنة أن

يكون عند ما تريد ليحميها من فضول العيون

لا موجب للاطالة بتلخيص الصفحات التي دوّنها شيث ابن عربانوس في هذا المقام ، فما نطيق ولا يطيق القراء مواجهة ما انطوت عليه من أحزان وكروب ، فلننظر كيف تسامع سكان الجنة بفضيحة آدم وحواء في لحظات

في لحظات ؟ وكيف ؟

كان جمهور أهل الجنة في ذلك الوقت جمهوراً قليل الأهمية من الوجهة المدّية ؛ وللجماهير الصغيرة محاسن وعيوب ، فمن السهل أن نكوّن رأياً عاماً في الجمهور الصغير بخطبة أو خطبتين وأن نروضه على الفضائل المنشودة حين نشاء بأيسر عناء ، ولكن من الصعب أن نصدّه عن تسمّع الأخبار السيئة ، فهو يُقبِل عليها بشهية عجيبة ، وهو يجد لذة في مضغ أحاديث الإفك والبهتان ، وقد يتزيّد فيضيف المآثم إلى الأبرياء ، ليظفر بالقوت المحبوب وهو الاغتياب ، فما يطيب للرجل الحقير أو الجمهور الصغير غير الخوض في الأحاديث التي تشوّه أقدار الأكابر من الرجال !

وعلى هذا وصلت أخبار آدم وحواء — أخبارها المزعجة — إلى جميع سكان الجنة في لحات ممدودات ، وصار الحديث عن مصيرها الفاجع زاد الألسنة في كل مكان

فكيف تلقّى الفردوسيون ذلك النبأ الفظيع ؟

انقسموا إلى فريقين : فريق الجازعين وفريق الشامتين

فمن الذي جزِع ؟ ومن الذي شَمِت ؟

جزع الأسود ، وفرح القرود ، ولذلك حديثٌ يستحق التسجيل :

لم يكد يتسامع الأسود بفضيحة آدم حتى صاموا عن الطعام حزناً لبلية ذلك المخلوق النبيل ؛ ثم اجتمعوا في « غابة العَرِين » ليسمعوا خطبة كبيرهم غَضَنْفَلُوث ، وقد خطبهم فقال :

« سُجَرائي وأشبالي

ترامتْ إليّ وإليكم أخبار الفضيحة التي رُزِئ بها آدم ، وقد جزعتُ لها كما جزعتم ، برغم اختلاف الجنس ؛ فنحن نمشي على أربع وهو يمشي على اثنتين ، وقوّتنا بالظفر والناب ، وقوّته بالقلب واللسان ؛ ولكن هنالك أصرة تجمع بيننا وبين ذلك المخلوق ، وهي الكرامة الذاتية ، فهو يأبى الضيم كما نأباه ، وهو يُزهى ويختال كما نُزهى ونختال . ولست أعرف قيمة شجرة التين حتى أحكم له أو عليه ، فنحن لحميّون لا نباتيون ، ومن الصعب أن ندرك ما في التين من دواعي الاشتهاء ، وقد حلّ به ما حل ، وذاق من علقم الفضيحة ما ذاق ، وسيقضي الله في أمره بما يشاء ، فهل ترون من الجرأة على الله أن نعلن الحداد لمصيبة آدم المظلوم ؟ »

أحد الأسود : أنحزنُ لمصيبة مخلوق عصى الله ؟

غضَنْفَلوث : إذا كان مخلوقاً كريماً ، وآدم مخلوقٌ كريم ، فهو وحده الذي يستتر حين يلامس أنثاه ، وما رأيته أبداً في موقف ينافي الأدب والحياء

أسدٌ آخر : وكيف نجيب إذا عدّ الله حزننا لآدم ضرباً من العصيان ؟

غضنفلوث : الله أكبر من أن يستظهر على عباده المذنبين بشهامة حيوان

أسد ثالث : العطف على المذنبين إغراء بالذنوب

غضنفلوث : هنا دقيقة تخفى عليك ، وهي أن العطف على الذنب يجتثّ من صدره بذور العصيان ، ويضيفه إلى أهل الطاعة والامتثال

أسد رابع : نحن مع الله في التنكيل بالمجرمين

غضنفلوث : ومن نحن حتى نشارك الله في الجبروت ؟

أسد خامس : نحن أسود

غضنفلوث : والأسود تحفظ الأدب مع الله فتترك له التفرد بالثواب والعقاب

أسد سادس : لا يجوز العطف على مخلوق خدعته أنثاه

وهنا انبرتْ لَبَوْلوث زوجة غضنفلوث فقالت في زئير يوقظ الأموات :

« لعلكم تريدون التعريض بحواء ، فهل تعرفون حواء ؟ إسألوني أخبركم : لقد كانت تجيء من لحظة إلى لحظة لتداعب الأشبال بأناملها اللطاف . وكنت أقدر أول الأمر أنها تفعل ذلك بسبب حرمانها من النسل ، ثم عرفت أنها مفطورة على الرفق والحنان ، وأنها لا تعيش إلا في ظلال الرفق والحنان ... ويلي عليك يا حواء ، فما رأيت أرخم منك صوتاً ، ولا أنضر وجهاً ، ولا ألطف مِشية ! كنت أنظر إلى تهديك الكاعبين فأعجب

وأطرب وأشاق ، ما أجمل تهديك يا حواء ! وما أشد جزعى حين أتذكر أنك لم تُرزَق طفلاً يناغم حَلَمَتَيك فى جذل وانشراح ! وهل أنسى أن حواء أرشق مخلوقة تمشى على اثنتين ؟ لقد كان تثنيها وهى تتخطر فوق شط الكوثر يخلع قلبى »

غضنفلوت : حواء جميلة إلى هذه الدرجة ؟

لبولوث : وأجمل من الغزال المكحول بمرود السحر والفتون

— عطف الأنثى على الأنثى معروف !

— وتحامُل الذكر على الأنثى لا يحتاج إلى تعريف . . .

ويلى عليك يا حواء ! أأنت تُفضَحين بين سكان الفردوس فضيحة جديدة ؟

— وهل كانت لحواء فضائح قديمة ؟

— من يومها وهى فضيحة الفضائح ، فشيتها فضيحة ، ونظرتها فضيحة ، ونبرتها فضيحة ، ودلالها فضّاح فضّاح فضّاح . ويلى عليك يا حواء ، ويلى عليك يا أختى !

— يظهر أنك مفتونة بحواء !

— وكيف لا أفتَتن بأنثى تفردت بالجسم الأملس إلا بعض شعرات . ولوجازت الغيرة على مثلى لأصبحت من المُوالك

ثم تعكّر هذا الحوار الرقيق بأصوات غليظة وصل صداها البغيض إلى ساحة العرين ، فما تلك الأصوات ؟

تلك أصوات القرود وقد شمتوا بآدم وحواء ، فكانوا يثبون إلى الأشجار ثم ينزلون ، فى انجذاب يشهد بأنهم صاروا من الفرح مجانين ، ثم بدا لهم أن يضعوا أخشاباً فى الكوثر ليركبوها ، كما كان يصنع آدم وهو يداعب حواء

وسمع الأسد الأكبر بهذا الضجيج فأقبل يعنّف شيخ القرود

— ما هذه الضجة ، أيها القرد ؟

— نحن نحتفل بعدل الله

— وما ذلك العدل ؟

— هو الحكم على آدم بما هو له أهل

— وما خطر ذلك الحكم الذى استوجب أن تقيموا من أجله هذا الاحتفال ؟

— لقد كُشِفت سوأة آدم ، ولله الحمد !

— إن سوأة آدم من أمام ، فهو يسترها بلا عناء ، وسوأتك من خلف أيها القرد ، وستظل إلى الأبد وأنت مفضوح ، لأنك شمتّ بآدم المظلوم

— كيف يكون مظلوماً وقد عصى الله ؟

— ذلك شرف لن تناله أبداً . لأنك ضعيف

— وهل تحتاج المعصية إلى قدرة ؟

— نعم ، ولأجل هذا سأعصى الله كما عصاه آدم

— فتأكل من شجرة التين ؟

— أى تين يا قرد ؟ إن لى فى العصيان مذهباً لا يخطر للقرود فى بال

— وما هو ذلك المذهب ؟

— هو أن أبطش بكم جميعاً فى لحظة واحدة فأريح الوجود من وجوهكم القباح

— أنت إذن لا تخاف الله ؟

— وكيف أخاف من يسمح بأن تكون للقرود دولة ؟ أنا كافر بالله ، كافر ، كافر ، إن جاز عنده أن تقوم دولة للقرود أو أشباه القرود ؛ ففضوا هذا الاحتفال السخيف ، وعودوا إلى حظائركم صاغرين ، وإلا نكلت بكم أشنع تنكيل

— وهل صنعنا شيئاً يعاب ؟

— إن الشماتة إثمٌ حقير وخسيس ، وهى لا تقع إلا من الأوشاب ، فانزووا أيها القرود قبل أن يحل عليكم غضبى ، فأنتم أحقر من أن تبوءوا بغضب الله ، ولعله منحنى من الشراسة ما منع لأؤدب ما يجلّ عن تأديبه من القرود والثعالب والذئاب

***

حين وقع الزلزال فى الجنة نظر رضوان فرأى الحية تزحف بسرعة تفوق المألوف من زحفها المقوت ، فأدرك أن عليها جانباً من المسئولية ، فنعها من الخروج إلى أن تنجلى الأمور . ونظر فرأى إبليس يهرول ليقتحم باب النجاة ، فردّه على عقبيه إلى أن يأذن الله بأن يكون من الناجين

ثم سُمع هاتفٌ يصيح :

— ماذا تستفيد يا آدم من الاختباء فى تلك الألفاف ؟ (١)

(١) إشارة إلى ما جاء فى كتاب « شيث » وما جاء فى « التوراة » من أن آدم وحواء اختبئا فى ألفاف الأشجار حياء من الله بعد انكشاف الستر عن السوأتين المجهولتين